المعرفة الصوفية والحب الإلهى

للدكتور محمد مصطفى حلمى

سبقت الإشارة عند الحديث عن التراث الروحى الذى خلقه الصوفيه المتحققون ، والمؤلفون المترجمون من النثر والنظم والقصص ، إلى أن هذا التراث الحافل هو الأداة الصالحة التى تعيننا من غير شك على فهم الحياة الروحية التى كان يحياها أصحاب هذا التراث من الصوفية ، وعلى تذوق الحب الالهى الذى كان يتغناه شعراؤهم ، وتعرف الدوافع النفسية والنوازع الخليقة التى عملت عملها فى نفوس أولئك وهؤلاء ، ثم آنت أكلها فيما خضع له أولئك وهؤلاء من أحوال ، وفيما أثر عنهم من أقوال ، وفيما ذهبوا إليه من مذاهب ، وها نحن أولا ، نقف عند صفحات من هذا التراث نتصفح فيها بعض النفوس الانسانية التى أحبت الله ، لقد فنيت فيه وأعرضت عما سواه ، ونستشف منها بعض الدوافع والنوازع التى انتزعت تلك النفوس الانسانية من أدران الحياة المادية ، وألقت بها فى أحضان الحياة الروحية ، وجعلت من أصحابها طيورا صداحة بأناشيد المحبة الإلهية ، وطماحة إلى التحليق فى سماء الحقيقة العلية ، والاستظلال بظل الذات القدسية فى وكر الأزلية .

ولعلنا لو وقفنا أولا عند بعض الذى يشتمل عليه التراث الصوفى من قصص وحكايات ، تروى عن المحبين والمحبات وما لقوا فيه من أوال ومشقات ، وتسجل لهم كثيرا أو قليلا مما أثر عنهم من مقالات

لوجدنا فى هذا كله غناء ، ولأصبنا منه كثيرا من المعلومات التى تعيننا على فهم كثير من المذاهب والنزعات ، والتى تكشف لنا عما يندرج فى هذه المذاهب والنزعات من المعانى النفسية والمبادىء الخلقية والمنازع الميتافيزيقية ؛ إذ ما من قصة من القصص إلا وفيها معنى ، ولا من حكاية من الحكايات إلا ولها مغزى ،

وهذه قصة يقصها الصوفى الكبير ذو النون المصرى عن صوفية من المحبات الالهيات هى زهراء الوالهة ، فيقول :-

بينا أنا أطوف فى بعض أودية المقدس سمعت قائلا يقول : ياذا الأيادى التى لا تحصى ، وياذا الجود والبقاء ، متع بصر قلبى بالجولان فى بساتين جبروتك ، واجعل همى متصلا بجود لطفك يالطيف ، وأعذنى من مسالك المتجبرين بجلالك وبهائك يارءوف ، واجعلنى لك فى الحالات خادما وطالبا ، وكن لى يامنور قلبى ، ويا غاية طلبتى صاحبا .

قال ذو النون : فتبعت الصوت ، فاذا امرأة كأنها عود محترق ، عليها درع صوف وخمار شعر أسود ، قد أضناها الجهد ، وقتلها الكمد وذوبها الحب ، فقلت : السلام عليك . قالت : عليك السلام ياذا النون قلت: كيف عرفت اسمى ولم ترينى ؟ قالت: كشف عن سرى الحبيب ، فرفع عن قلبى حجاب العمى فعرفنى اسمك . فقلت . ارجعى لمناجاتك . فقالت أسألك ياذا البهاء أن تصرف عنى شر ما أجد ، فقد استوحشت من الحياه ثم خرت ميتة ، فبقيت متحيرا .

فأقبلت عجوز كالوالهة نظرت ثم قالت : الحمد لله الذى أكرمها . ولما سألها ذو النون عمن تكون هذه ، أجابته بقولها : هذه ابنتى زهراء الوالة منذ عشرين سنه ، توهم الناس أنها مجنونة ، وإنما قتلها الشوق إلى ربها تعالى .

فحب الله ، والشوق إليه ، والوله فيه ، والانس به والتسبيح بحمده على آلائه ونعمائه . والاستعاذة من المتجبرين بجلاله وبهائه ، كل أولئك

معان روحية رائعة تنطق بها كل لفظة من الالفاظ وكل عبارة من العبارات فى صراحة وجلاء بحيث لا تحتاج إلى تفسير لها أو نعقب عليها .

وهذه قصة ثانية من المحبين الالهيين ، لعلها أوضح وأصرح فى الدلالة على معنى الحب الانسانى الالهى ، والاباحة عن أرقى وأسمى المثل التى ينبغى أن يحققها المحب لله ، وهو أن يفرغ قلبه لله ، ويركز حبه فى الله ، لعل هذه القصة كانت كذلك لأنها قصة الزاهدة العابدة العاشقه رابعة العدوية أول من سقى شجرة الحياة الروحية الاسلامية بماء القلب ، وشدا على أغصانها بنغم الحب : -

فقد ورد فى كتاب (الروض الفائق فى المواعظ والرقائق) للشيخ الحريفيش ، أنه حكى عن رابعة العدوية - رحمها الله تعالى - أنها كانت إذا صلت العشاء ، قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت : « إلهى ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها ، فاذا كان وقت السحر ، وطلع الفجر ، قالت . « إلهى ! هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى ! أقبلت منى ليلتى فأهنا ، أم رددتها على فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى . وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك » ثم أنشدت :

يا سرورى ومنيتى وعمادى
وأنيسى وعدتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى
أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى ،
ما تشتت فى فسيح البلاد

كم بدت منة وكم لك عندى
من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى
وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك - ما حييت - براح
أنت منى مكن فى السواد
إن تكن راضياً على فانى
يامنى القلب قد بدا إسعادى

وبين هنا أن الحبيب الذى تتغنى رابعة حبه فى مناجاتها إنما هو الله الذى تقبل عليه وتخلو إليه ، وتذأب على حبها له ، فلا تبرح بابه ، ولا تدع رحابه ، ذلك بأنها قد اتخذت من الله حبيبا لها ، ومؤنسا لروحها ومنية لقلبها ، وكل أولئك معان تلائم ملاءمة تامة مذهب رابعة فى الحب الإلهى ، هذا الحب الذى أحبت فيه الله لا خوفا من ناره ، ولا طمعا فى جنته ، ولكن ابتغاء لوجهه واجتلاء لطلعته ، وذلك على الوجه الذى سأكشف لك عنه فى موضعه بعد .

ويسلمنا الحديث عن رابعة العدوية إلى الحديث عن عمر ابن الفارض فكلاهما محب وقف قلبه وحبه على الله وكليهما مع محبوبه قصص ، تدل كثيرا أو قليلا على أن حب الانسان لله حبا حقيقيا إنما هو الحب الذى يبرأ فيه المحب من شوائب الهوى والغرض ، ومن نوازع الخوف والطمع ، ومن القصص التى من هذا القبيل القصة التى تروى عن ابن الفارض عند احتضاره ، والتى أجلها لك فيما يلى :

فقد حكى برهان الدين إبراهيم الجعبرى أحد الأولياء المعاصرين لابن الفارض حكاية احتضار الشاعر الصوفى المصرى ، وما وقع له فى

ذلك الاحتضار من تمثل الجنة له ، وما أثاره هذا التمثل فى نفسه ، فقال : رأيت الجنة قد تمثلت له ، فلما رآها قال : آه! وصرخ صرخة عظيمة وبكى بكاء شديدا ، وتغير لونه ، وقال :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم
ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت روحى بها زمنا
واليوم أحسبها أضغاث أحلام

فقلت له : يا سيدى ! هذا مقام كريم . فقال : يا إبراهيم ! رابعة العدوية تقول ، وهى امرأة . وعزتك ما عبدتك خوفا من نارك ، ولا رغبة فى جنتك ، بل كرامة لوجهك الكريم ، ومحبة فيك . وليس هذا المقام الذى كنت اطلبه ، وقضيت عمرى فى السلوك إليه . . . . . فسمعت قائلا يقول بين السماء والأرض اسمع صوته ولا أرى شخصه ، يا عمر فماذا تروم ؟ فقال :

أروم وقد طال المدى منك نظرة
وكم من دماء دون مرماى طلت

ثم بعد ذلك تهلل وجهه وتبسم ، وقضى نحبه فرحا مسرورا ، فعلمت أنه قد أعطى مرامه .

والذى يعنينى من هذه القصة هو أن تلاحظ معى أن ابن القارض كان محبا لله على الحقيقة ، وانه لم يرد بسلوكه طريق الحب الالهى جزاء ولا شكورا ، وإنما هو قد سلك طريق الله ، وقطع عمره فى حب الله ، لا لأنه خائف من عذاب الله ، ولا طامع فى ثواب الله . بل لأنه يريد كما أرادت رابعة أن يظفر بنظرة من الله . يستمتع فيها بجماله الأزلى . فذلك عنده هو الغاية القصوى والبهجة العظمى من حبه الالهى ، ومن هنا نراه بعد تمثل الجنة له مكافأة له على حبه هو انا له لأنه لا يريد الجنة . ولكنه يريد رب الجنة .